

خطاب صاحب الجلالة في افتتاح المناظرة الوطنية للتربية والتعليم

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

حضرات السادة :

سأقص عليكم قصة وقعت لي أثناء مدة الشهرين اللذين كنت أعد فيهما المسيرة الخضراء، لقد كنت أتساءل : هل هذا الجيل جيلنا في مستوى من سبقه ؟ هل سيهدي صدره وروحه وجسده للمدافع وللطلقات النارية أم لا ؟ أجل، كان هذا هو سؤالي، وكان الناس الذين ألقيه عليهم لا يعلمون معناه ومداه، وهدفه وعمقه، فكان ما علمتم وكان المغرب في مستوى المظنون.

وها هو المغرب اليوم بنخبته السياسية والعلمية والثقافية في مستوى الاستدعاء والتلاقي، والحوار.

ذلك لأننا جئنا للحوار، ولم نأت هنا لفرض شيء دون شيء، ولم نأت هنا بمعجزات في جيبنا، بل جئنا بنية صادقة، وشعور هادف، حتى يرحمنا أبناؤنا في عالم لا يرحم إلا من هو كفء ليعيش فيه في جو من المنافسات والمسابقات، والرهان لا يرحم ولا يعرف للنية معنى إلا إذا كانت تلك النية يتبعها عمل جاد وخلاق وبناء.

وليس من الغريب أن يأتي اليوم إلى يفرن من كل حدب وصوب، أقوم الرجال وأعقلهم، لأن مشكلة التعليم بالمغرب ليست مشكلة ينفرد بها المغرب دون غيره، بل هي مشكلة العالم، هي مشكلة القرن الواحد والعشرين، وهذه المشكلة يعرفها الجميع، سواء من ينتمي إلى الأنظمة الليبرالية أو الأنظمة الاشتراكية، سواء الدول الغنية أو الدول النامية، والمغرب يعرف هذه المشكلة من نافذتين : النافذة التي هي نافذة هذه الدول والأنظمة التي ذكرتها، ولكن يعرفها أيضاً لأن العلم والحضارة والثقافة هي مقومات المغرب منذ أن خلقه الله، فإذا نحن أخذنا تاريخنا منذ الرومان والفنيقيين نجد أن العلم ملازم لنا ملازمة الهواء الطلق للأرض التي يعيش عليها الانسان، فتساؤل المغرب عن مصيره التعليمي هو تساؤله كيف سيكون المغربي رجل القرن الواحد والعشرين ؟ ليس تساؤل القرن وكفى، بل هو إجابة لغريزة فطرية، لأن العلم والثقافة هما الحاسة السادسة للشعب المغربي، لازمته وستلازمه.

فإذا نحن انطلقنا من هذا المنطلق نجد أن المغرب من الدول النامية التي لم تتحكم بعد في معطياتها الاقتصادية لكونها لم تكشف لحد الآن ما هو ضروري لها، أو لأنها تشتكي والمغرب من ضمنها من عجز في الأطر والرجال وفي المكونين، وأظن أن هذا هو السبب الحقيقي، اننا نرى أن اليابان مثلا الذي هو المصدر الثالث للصلب والحديد لا ينتج الحديد، ونرى أوربا التي تتحكم في الدول النامية — وحتى في الدول التي في طريق النمو، بآلياتها وميكانيكياتها — لا تتوفر على طاقة ولا بترول، ولكن اليابان وأوربا كليهما يتوفران على رجال، فالغني الحقيقي إذن هو الرجل والعنصر البشري، فإذا قلنا : اننا في هذا الحوار، وبهذا الحوار سنخلق ثراء المغرب وغناه،

قلنا بحق : اننا سنخلق ثراء المغرب وغناه.

العلم إذن ضرورة من ضروريات الحياة، لهذا يجب على المغرب أن يساير الحياة العصرية، ولكن يجب عليه كذلك أن يرى في اقتناء العلم هدفا وفضيلة خلقية، فضيلة تستجيب لكرامة الانسان، وتستجيب لأمر القرآن الكريم، وتستجيب لنداء النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم»، وهكذا نجد أن العلم يستجيب إلى ضرورة القرن العشرين، وإلى الفضائل الاسلامية، وتعاليمنا الدينية، إلا أنه حينما نقول العلم، فماذا نعني بالعلم ؟ علينا أن نختار العلوم وأصنافها التي تمكننا من إدراك الدنيا، وإدراك الآخرة، وتمكننا كما يقول بعض النحويين من الدنيا والآخرة معاً.

فالعلم مناط بالمنهاج، فإذا كانت المادة الخام حقيقة هي العنصر المغربي وهو عنصر طيب من حيث سلامته وبيئته، ومن حيث خلاياه الاجتماعية فتبقى المناهج، فإذا سرنا على مناهج التعليم التي نسير عليها فسنصبح في العشر سنوات المقبلة فقراء وجهلاء، فقراء من المال لأن الميزانية ستتضخم سنة بعد أخرى، سنصبح فقراء بعدم خلق المفكرين، وسنصبح جهلاء، لأن المستوى انحط جدا.

فحينما نرى المجهود الذي يبذله المغرب كل سنة، فيلتحق بالمدارس ثلاثمئة وخمسون ألف تلميذ، وحينما نرى أن خمسة في المائة فقط من ذلك العدد الضخم هو الذي يصل إلى نهاية المطاف، فهذا كما يقول القرآن الكريم «قسمة ضيزى» وافدح من قسمة ضيزى.

فإذا بقينا نسير على هذا المنهاج فسنصبح فقراء ماليا وفكريا، وجهلاء، فالطبيب ليس بالطبيب والقانوني ليس بالقانوني، والمهندس ليس بالمهندس.

لهذا فمناهج التعليم يجب أن يراعى فيها شيآن : الشيء الأول الحفاظ على أصالتنا، تلك الأصالة التي تميزنا بها منذ أن اجتاز طارق بن زياد المضيق إلى ان اجتاز المغاربة الصحراء، فعلينا أن نحتفظ بتلك الأصالة، والأخلاق، وبتلك البيئة وبذلك التطعيم الروحي الذي لا يمكننا أن نجده إلا في تعاليم الدين، وفي المحافظة على اللغة العربية، وهذه المقومات هي التي جعلتنا وستجعلنا نئن لكل شيء أصاب العرب وأصاب المسلمين، لا نئن فقط، بل نتجند ونجود بالروح وبالمال وبالعبقرية، فإذا نحن أطلعنا على مكتبات المغرب كلها، وأخذنا نصنف ما هو القسط الذي ساهم به المغرب في الحضارة العربية والاسلامية والعالمية كلها، نجد ولله الحمد أن ما ساهم به كان ثقيلا، ونرى أن ما أعطى كان كثيراً.

فهل يا ترى نرضى لأنفسنا وأبنائنا أن يكونوا بخلاء على أنفسهم، وقارتهم ومواطنيهم العرب، وبخلاء على إخوانهم في الدين، وعلى البشرية جمعاء ؟

لا نرضى أن نكون بخلاء، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الأساس صحيحاً، فإذا كان الأساس صحيحا يستقى من عمق ينابيع العبقرية المغربية، فسيبقى هيكل المغرب هو هيكل المغرب لن تؤثر فيه الزوابع، ولن يلحق به ضرر الاعصار.

إذن يجب علينا أن نحافظ على أصالتنا وتراثنا ومقوماتنا، هناك لجنة التراث في أكاديمية المملكة المغربية التي تدارست التراث، وستعرض عملها في دورتها في شهر نونبر، ومن جملة ما أوصت به إحياء التراث البربري

في الجامعة، فعلينا أن لا نغفل هذا في الجامعات، وكذلك بدراسة تاريخنا ومقوماتنا الحضارية التي جعلتنا نقف في وجه المعتدي، ولسنا نحن من الذين لهم مركب نقص، فإذا كانت بعض الدول تتخوف من هذا فنحن ولله الحمد أخذنا حقنة المناعة في عامي 1930 و1937.

ومهما دار من حديث وكلام حول هذه المسألة وان اكتسى معنى سياسيا، فالمغرب ملقح وله مناعة وحصانة، وهذه المسألة ليست مشكلة بالنسبة للمغرب بل هي من الآفاق التي يمكن أن نفتحها أمامنا بدون تخوف، فالأسرة المغربية هي أسرة متكاملة الأطراف وهذه المسألة من بين الأشياء التي يراها الناس في واجهة المغرب الذي يتميز بخاصية هذا التكامل.

إذن يجب علينا أن نحافظ على هذه الأصالة والتراث، ولكن مع التوجه للمستقبل، وهذا التوجه للمستقبل تفرضه علينا عبقريتنا ويحتمه ماضينا، ففي تاريخنا كنا صلة الوصل لنقل العلم من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى أوربا لصلتنا بالعالم كله، ووجودنا في ملتقى البحرين، والموقع الجغرافي هذا يفرض علينا القيام بأدوار لصالح قارتنا حفاظاً على هذه المعطيات والمكتسبات وهذا لا يتأتى إلا في ظلال البحث عن اللغات الأجنبية التي تمكننا من التعايش في القرن العشرين، والتي تمكننا من أن نصبح رجالا يفتخر بهم العرب والمسلمون والأفارقة.

فما هو إذن هدف هذه الأيام ؟ الهدف هو فتح الحوار كما قلت لكم، فكل من أتى بشيء يناقش، لأنه ليس وحياً يوحى، ووزيرنا في التعليم له برنامج، وليس كل ما عمل مستحسنا، لأن الكمال لله، كما أنه ليس كل قام به لا قيمة له، ثم إنكم كلكم من المهنة، سواء كأساتذة أو كمفتشين أو كنقابيين في التعليم أو نقابيين للجمعيات الطلابية، إذن لا يوجد بينكم هنا من هو غريب عن الأسرة أو الموضوع، أو من ليست له نظرية يأتي بها، بالطبع ستقولون هل في مدة خمسة أو ستة أيام يمكننا أن نضع خطة تعليمية للمغرب، أنا لا أقول بذلك، لأن هذا سيكون من باب التسرع والارتجال، لهذا فبمجرد الانتهاء من خطابي سأعطي رآسة الجلسة للوزير الأول، وأعتقد أنه في هذا المساء يفتح هذا الحوار العلني، وكل من أراد أن يلقي كلمة توجيهية سواء من رؤساء الأحزاب أو رؤساء النقابات أو غيرهم فله ذلك، وبعد ذلك ينقسم الحاضرون إلى لجان.

إن هدفي من هذه المناظرة هو أولا أن يتم الدخول المدرسي والجامعي في أحسن الظروف، وثانياً أن نعطي لأنفسنا مهلة ثلاثة أشهر وليس أكثر لنأتي بقاعدة عامة تكون بمثابة حد أدنى يتفق عليه الجميع ويلتزم به، علما منا أن ميدان التعليم هو من الميادين الحيوية المتحركة، ميدان التعليم وكيفية التعليم أعتقد شخصياً بضرورة مراجعتها كل خمس أو ست سنوات، وهذه المسألة يجب أن لا تغيب عن بالنا، لأن النسل يتكاثر، والبيئة العالمية تتغير، والمادة الخام تتبدل، فالشاب الذي عمره اليوم عشرون سنة ليس هو نفس الشاب منذ ثلاثين سنة.

فالشباب الذين هم اليوم في سن العشرين أو الذين سيكونون في نفس السن مستقبلا نشأوا وترعرعوا في جو الوسائل المرئية والمسموعة الذي ننشأ ونترعرع فيه.

فالتعليم إذن مراجعة مستمرة، وهو إكمال مستمر، وهو البحث عن الكمال دون نهاية، انني أعرف أن لديكم جميعاً موقفاً ورأياً وأنا أحب الانسان الذي تكون لديه مواقفه ومبادئه، ولكنني أيضاً أعرف انني سأجد في حنكتكم الرجال الذين سيوفقون بين مبادئهم ومواقفهم وبين المرونة اللازمة للتعايش والحوار.

وهذا الحوار أباركه شخصياً لأنه أول حوار من نوعه في حجمه وفي نوعه وفي مسؤوليته ولن يكون —



إن شاء الله — آخر حوار، إذ ليس لدينا فقط مشكل التعليم، لدينا المشاكل الاجتماعية، والمشاكل الاقتصادية، فزيادة على ما يتداول فيه البرلمان وما تتدارسه الجماعات المنتخبة، أعتقد شخصياً أن التجمعات هذه حول المواضيع القيمة والحقيقية والجوهرية للبلاد من شأنها أولا تكثيف المسؤولية، وثانياً تجعل المجتمعين يتوحدون لمواجهة القضايا المطروحة دون التعلل بالانتماء لهذا الفريق أو ذاك، فأنتم اليوم أمامي جالسون دون اعتبار إلى أن هذا من الفريق الأول وذاك من الفريق الثاني، وذاك من الفريق الثالث، وكلكم متلاحمون مترابطون حتى أن الفكرة والكيفية التي ستشاركون بهما في العمل ليستا مثل مشاركة الفرق البرلمانية أو الأحزاب السياسية التي لها برامجها، بل مشاركة مغاربة اجتمعوا ليصنعوا الرجل المغربي للقرن الواحد والعشرين.

وأخيراً حتى أظهر الروح الديكتاتورية التي هي القهر والجبروت والفردية المتشبع بها أفرض لفائدة السادة الطلبة أيضاً تخفيض ثلث قيمة الكراء في الأحياء الجامعية.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم «ما اجتمعت أمتي على ضلال»، وأنتم هنا أمة الله من جميع مكونات المجتمع المغربي من علماء التعليم الأصيل، وأساتذة، ومديرين، وقيدومي أسرة التعليم، ومن رؤساء أحزاب سياسية ونقابية، فلا يمكن أن أتصور أننا سنخرج من هذه المناظرة وهذا الحوار دون النتيجة المتوخاة، وعلينا أن نتوجه إلى الله سبحانه وتعالى سرا وعلانية — والله سبحانه وتعالى أسأل — أن يلهمنا الحلول الناجعة وأنا أحب دعاء المهم «فألهمها فجورها وتقواها»، وهذه وإن كانت ليست من الأسماء الحسنى، ولكنها من الاذكار التي يذكر بها.

نطلب من الله أن يكون ملهمنا لأداء واجبنا بالنسبة للعصر الذي نعيش فيه، وبالنسبة للعصر المقبل، لأنه يجب علينا أن نخلق الصدقة الجارية، والصدقة الجارية بالنسبة لنا هي الولد الصالح الذي يدعو لأبيه.

فإذا أردنا أن يعيش المغرب في صدقة جارية فعلينا أن نخلق الأبناء الذين يدعون لنا بالخير باستمرار.

وفقكم الله وأعانكم والسلام عليكم ورحمة الله.

الخميس 17 شوال 1400 — 28 غشت 1980